

المحاضرة السابعة
العلوم عند العرب المسلمين: العلوم العقلية
ثانياً: الكيمياء

يعد علم الكيمياء من العلوم التي تميز بها علماء المسلمين في آرائهم ونظرياتهم وابتكاراتهم ومؤلفاتهم، ويذكر أن أول من أبدى اهتماماً بهذا العلم هو خالد بن يزيد. فمن هو خالد هذا؟ هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان من الشخصيات التي اختلفت الأقوال فيها إيجاباً وسلباً، فبعد وفاة والده يزيد وتنازل أخيه معاوية الثاني عن الخلافة وتركها بدون أن يوصي لأحد، وحد الأمويين صفوتهم وانفقوا في منطقة الجابية على اختيار مروان بن الحكم ومن بعده خالد بن يزيد، ومن بعده عمرو بن سعيد الأشدق الأموي، كان خالد على النقيض من أخيه معاوية الثاني يشيد بجده معاوية وأبيه يزيد، لذا أحبه الأمويين وأرادوا مبايعته لولا صغر سنِه مقابل عبد الله بن الزبير، وبعد وفاة يزيد تزوج مروان من أمِه ليصغر من شأنه وكان يسمعه أقبح الكلام ويُخاطبه يا ابن الرطبة، فشكَا خالد لامه فعملت الحيلة في قتل مروان مع جواريها، أما مروان فكان قد ضرب مقررات مؤتمر الجابية عرض الحائط وأوصى ولديه عبد الملك وعبد العزيز متاجروا خالد وعمرو الأشدق، وتظهر الروايات إن خالداً كان يظهر امتعاضه من عبد الملك حتى إن عبد الملك كان يمنع أهل بيته من اللقاء بخالد، وهذا يبدو أمر طبيعياً لأن عبد الملك قد اغتصب الخلافة منه، وقيل إن خالداً كان يصوم الأعياد الثلاثة الجمعة والسبت والأحد، أي الجمعة للMuslimين، والسبت لليهود، والأحد للنصارى. ولم يتضح مراد خالد من ذلك؟ كان يروي عن أبيه يزيد وعن حمية الكلبي، وكان خالد مزواجاً مطلاقاً إذى هو امرأة طلق السابقة وتزوجها. وكان خالد ينتقد سياسة الحاج العضد الأيمين لعبد الملك فقال له مرة: إلى كم هذا البسط في القتل؟ فقال الحاج: إلى أن لا يبقى في العراق من يزعم أن أباك كان يشرب الخمر. وأشيع في كثير من المصادر إن خالد بن يزيد كان أول من اهتم من المسلمين بعلم الكيمياء، لذا عرف بحكيم آل مروان ويفسرون سبب توجه خالد هذا لعدم حصوله على الخلافة بعد أن عهد مروان بها ولديه عبد الملك وعبد العزيز. قال جرجي زيدان: لا خلاف في إن العرب هم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم، وكان من اشتغل في نقلها إلى العربية خالد بن يزيد نقلها عن مدرسة الإسكندرية وعنه أخذ جعفر الصادق ت ٤٠ هـ وبعده جابر بن حيان.

فيما توقف الهاشمي متسائلاً حول ما نسب لأسبقية خالد في الكيمياء قائلاً "قيل كان يعيش في الإسكندرية راهب يدعى ماريانوس، كان يشتغل في الكيمياء، وقد سمع به الأمير العربي خالد بن يزيد، واستدعاه إلى دمشق ليتعلم منه الصنعة، وبعد أخذ ورد قبل هذا الراهب المجيء إلى سوريا ليعمل خالداً الكيمياء، وقام في ترجمة عدة كتب إلى اللغة العربية. بعد ذلك تسائل الهاشمي: "لا ندرى إلى أي درجة صحة انتساب خالد إلى الكيمياء، ولقد عثر الأستاذ روسكا على مؤلف ينسب لخالد، ولكن لدى البحث والتمحیص تبين له إن هذا الكتاب لمنتظر للأسباب التالية:

- ١ - لأنه يشبه الكتب التي ألفت في القرن الثالث عشر.
- ٢ - لم يجد ذكراً للمثل هذا المؤلف في الرسائل التي كانت تستقي من منابع سابقة، ولم نجد له ذكراً في كتاب جابر إلا مرة واحدة إثناء الحديث عن راهب يمت بصلة إلى خالد بن يزيد..."
ثم قال الهاشمي: "إن أول شخصية تاريخية ظاهرة اشتغلت في الكيمياء في العرب والإسلام هي جابر بن حيان الصوفي الممثل الأول للكيمياء العربية وقد اثر أيضاً في الكيمياء الأوربية لظهور عدد لا يستهان به من المخطوطات اللاتينية في الكيمياء المنسوبة إلى جابر" ومن خلال ما من نجد هناك بضعة ملاحظات:

١ - المبالغة في شخصية خالد بن يزيد فهو أولاً السياسي المرشح لمنصب الخلافة بعد مروان طبقاً لمقررات مؤتمر الجابية. ثم نجده الأديب والشاعر والبلغ في الفصيح وانه ترك ديواناً يقع في ثلاثة آلاف ورقة، ولكننا لا نكاد نعثر على هذا الشعر الكثير في المصادر، فلم لا

يخرجه المحققون في التراث كما حفظوا ما هو اقل منه عددا ، ونجده أيضا ذلك المتبع لأحداث المستقبل ، وانه تنبأ بالسفياني المنتظر . مع إن خبر السفياني وارد عن النبي صلى الوكتب،ه والله وسلم . ثم نجده عالما في الكيمياء وان له رسائل وكتب ، وانه أول من ترجم كتب الطب والكيمياء . ولكن لم نعثر على هذه الرسائل والكتب المترجمة ومن الذي اعتمد عليها من جاء من بعده من الحكماء وما هو ربوّله: مدى صحة ترجمته وما عمله في الكيمياء والطب.

٢ - إن مسألة اهتمامه بالطب والكيمياء لازالت شائكة بين الباحثين قديماً وحديثاً فقد شك فيها ابن الأثير بقوله : يقال انه أصاب علم الكيمياء ولا يصح ذلك . وكذلك أنكر ذلك ابن خلدون حيث قال : "ربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربّي مروان بن الحكم ، ومن المعلوم بين إن خالد من الجيل العربي والبداؤة إليه اقرب فهو بعيد عن العلوم والصناعات بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم ، اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية فتشبه باسمه ممكناً " .

وما ذهب إليه ابن خلدون يبدو صحيحاً وقد نجد في الكتب المخصصة لدراسة الحكماء شخصاً يحمل هذا الاسم كما ورد لدى ابن ججل ، وابن سينا ، وابن أبي اصبيعة . فقد جاء عند ابن ججل يزيد، خالد بن يزيد بن رومان النصراني ، كان بارعاً في الطب ، ناهضاً في زمانه فيه ، وكانت داره الدار المعروفة بدار ابن الشطجيري الشاعر ، وكسب بالطب الأموال والعقار ، وبنى الحمام المنسوب إليه الذي بجنب داره ، وكان صانعاً بيده ، عالماً بالأدوية الشجارية ، وظهرت منه في البلد منافع ، وكتب إليه نسطاس بن جريج الطبيب المصري رسالة في البول . وأعقب خالد ابناً سماه يزيد ، ولم يبرع في الطب براعة أبيه .

فهل أشكل على البعض وتصوروا إن المقصود هو خالد بن يزيد لشهرته ثم اخذوا يبحثون عن تبريرات لتوجهه نحو الكيمياء؟ أم أن البعض تعمداً استفاد من هذا الاسم لإضفاء القداسة على خالد هذا؟ .

٤ - إن كلام جرجي زيدان صحيح في أسبقيّة العرب في تأسيس الكيمياء الحديثة ، ولكن مسألة أن يكون خالد بن يزيد السباق لذلك مسألة لم يقطع بها أحد ولا زالت موضع خلاف بين الباحثين ، ثم ما ذهب إليه زيدان من إن الإمام الصادق عليه السلام أخذ عن خالد أمر غير صحيح للأسباب التالية :

١ - توفي خالد سنة ٨٥ هـ فيما ولد الإمام الصادق سنة ٨٢ هـ . فكم عمره ليدرس على يد خالد؟ !

٢ - إن خالداً كان في بلاد الشام والإمام الصادق في المدينة ولم يؤثر إن الإمام ذهب للشام .

٣ - إن معرفة الموقف الأموي من أهل البيت ينفي أخذ الإمام عن شخص أموي كخالد بن يزيد والمُعْرُوف إن يزيداً هو المسؤول عن أفعى جريمة شهدتها التاريخ بحق البيت النبوى . وكان خالد يُمَجِّد جده معاوية وأبيه يزيد ، فكان مؤيداً لموافقتهم بحق أهل البيت عليهم السلام .

٤ - إن المكانة العلمية للإمام الصادق عليه السلام هي أرقى من مكانة خالد .

٥ - لم نجد في المصادر ما يشير لأخذ الإمام الصادق (ع) عن خالد وإنما هذه استنتاجات من المؤرخين المعاصرين ، ولا ندرى ما سبب هذا الاستنتاج ؟

ومع ذلك يبقى الإمام جعفر الصادق (ع) صاحب الريادة في التأسيس لعلم الكيمياء ، فقد كان أستاذًا للكيميائي المشهور جابر بن حيان ، إذ كان جابر يقول في كتابه رسالته (قال لي جعفر عليه السلام) أو (ألقى إلى جعفر) أو (حدثني مولاي جعفر عليه السلام) وقال في رسالته الموسومة بالمنفعة (أخذت هذا العلم من سيدي جعفر بن محمد سيد أهل زمانه) .

أما عن جابر بن حيان الذي بلغت تصانيفه ٩٠٠ كتاباً ورسالة ترجم ما يقارب ٥٠٠ منها إلى اللغات الأوروبية وهي محفوظة في مكتبة الدولة ببرلين وبارييس وغيرها وعرف عند الغرب باسم Geber ، ويسمى ببابي الكيمياء وأستاذ الحكمة ، فهو أول من استخرج حامض الكبريتيك

وسماه زيت الزاج وأول من اكتشف الصود الكاوي واستحضر ماء الذهب ودرس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها ، قال المستشرق غوستاف لوبيون : (تتألف من كتب جابر موسوعة علمية تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيمياوية كانت مجهلة قبله ، وهو أول من وصف أعمال التقطر والتببور والتذويب والتحويل) ، ويعرف علماء الغرب أن جابر اكتشف ١٩ عنصرا كيميائيا ، ونسبوا إليه أنه يقول بوحدة العناصر وأنها تعود لعنصر النار المخبوء في باطن الذرة من ذرات المادة . لكن مع الأسف فقد الكثير من مؤلفاته ومؤلفات العلماء المسلمين ، والغريب أن البعض يدعى اكتشاف العناصر إلى لا فوازيه.

أما أبو بكر الرازي فقد سلك في بحوثه وتجاربه مسلكا علميا سليما ففي كتابه سر الأسرار ذكر تجاربه مبتداً بوصف المواد التي اشتغل بها ثم الأدوات والآلات ثم طريقة تحضير المركبات .

وحضر المجريطي في فرطبة أوكسيد الزئبق التي كان له اثر في أبحاث بريستلي ولا فوازيه ، أما الجلدي صاحب كتاب التقريب في أسرار التركيب فقد فصل الذهب عن الفضة بوساطة حامض التترريك وهي طريقة لا زالت تستخدم إلى اليوم ولها شأن في تقدير عيارات الذهب في المشغولات والسبائك الذهبية .

لقد عرف علماء المسلمين طرق التقطر والترشيح والتكتليس والتحويل والتبخير واكتشفوا الكحول والقلويات والنشادر ونترات الفضة (حجر جهنم) والبورق والزرنيخ ، وتوصل ابن سينا إلى تغليف الحبوب التي يصفها للمرضى منعا لمرارتها أن تؤدي اللسان ، والعلماء المسلمين أول من استعمل المُرقد من الأفيون والزيوان أو الشيلم للتهدير . ولا زال كثير من المواد الكيميائية العربية تستخدم في الغرب بأسمائها العربية .